

الجمال ما الجمال ، إدراك الجمال ، الأثر الجمالي

مفهوم علم الجمال : ماذا يعني ؟ ما هي حدوده ؟

السبب في عدم القدرة على الإحاطة بموضوع الجمال ، لأن علم الجمال من العلوم التي لها صلة بأكثر من علم من علوم المعرفة . المشتغلون في حقل المعرفة لهم رأيهم في علم الجمال ، كذلك المشتغلون في الاجتماعيات فضلاً عن الأدب والفلسفة ، لذلك سنحاول أن نجمع ما يمكن من الآراء التي يمكن أن تلقي الضوء وإعطاء فكرة عامة تتوافر على قدر من الشمولية والإحاطة في ماهية علم الجمال .

يكاد يتفق معظم الدارسين في الحقول المختلفة على أن الجمال ليس له قانون ولا يخضع لقواعد وأسس مثل بقية المعارف والعلوم ، والصفة الأخرى التي يكاد يتفق عليها معظم هؤلاء الدارسين أن الجمال بطبيعته غامض ، وهذا القدر من الغموض هو الذي يتيح له فرصة أن يتمرد على القانون ، لأن شرط أي قانون هو الوضوح ، ولهذا نجد فرويد مثلاً يصرح باستمرار بأن نظرية التحليل النفسي (الفرويدية) ليس لها رأي في علم الجمال . وغالباً ما تنظر المعارف المجاورة للفلسفة إلى علم الجمال عبر مجموعة من المداخل لعل من أبرز هذه المداخل هو ما يصطلح عليه بالموضوع الجمالي . ويفهم الموضوع الجمالي على أنه القدرة على ترجمة ما في النفس والشعور ترجمة استثنائية مغايرة تتوافر على قدر من الإدهاش والفراة .

وإذا ما عدنا إلى رأي (كانت) في الموضوع الجمالي نجد أنه يعني بالموضوع الجمالي : (تلك الحالة من الوجد التي تتبعث من الداخل وتبعث على المتعة من دون غاية أو مفهوم) . كما يرى بعضهم أيضاً أن الجمال هو الحرية . وهذا التحديد تحديداً عاماً وواسعاً ومنفتحاً . إن شرط الإبداع الحقيقي هو الحرية ، وبما أن الجمال هو منتج فني يصفه بعضهم بالحرية .

كما يصفه البعض الآخر بأنه القوة والوفرة والذكاء ، ويصفه آخرون بأنه عبارة عن مجموعة خصال متميزة تدرك بالحواس .

ولو أردنا أن نطيل في تعريفات الجمال والموضوع الجمالي لأخذ ذلك وقتاً طويلاً ، وقد نصل إلى خلاصة من كل هذه الآراء التي تحاول أن تصف الجمال أو تضع له تعريفاً أو تحدد مواصفاته بأنه ليس هناك تعريف نهائي للجمال ، الجمال وجهة نظر تعتمد في قياساتها على عوامل كثيرة نفسية واجتماعية واقتصادية وعصرية وثقافية كلها تشترك في توفير أساس معين لتكوين وجهة النظر هذه .

في خضم هذا التنوع والتعدد الهائل لتعريفات الجمال حاول بعض الدارسين أن يستخلص من هذه التعريفات وهذه المفاهيم محاولة تقريبية لاستيلاء مفهوم أو تعريف يحقق الجزء الأعظم من العامل المشترك بينها فقال : بأن الجمال هو (تمازج وتمايز بين عدة

وحدات يربطها رابط أساسي) وانطلق في محاولة البرهنة على دعم هذا التعريف بما تيسر من قوة المنطق النظرية بدراسة المرئيات والأشكال بوصفها واقعاً جمالياً عيانياً ملموساً ، وحاول أن ينطلق من الأشكال والمرئيات إلى المظاهر الجمالية الأخرى ، وقال بأنه فيما يتعلق بالتمازج بين الوحدات ، فكلما كان هذا التمازج بين الوحدات أكثر كان هذا أفضل وأقرب إلى مواصفات الجمال ، وانطلاقاً من خلفيات هذا التعريف يصل إلى اعتقاد -وهو اعتقاد صحيح- أنه ليس هناك جمال مطلق ، بل هناك جمال نسبي يتوقف إدراكه وتمثله والتمتع به على ظروف وقناعات ومؤثرات عديدة ومتنوعة ، كما أنها تخضع أيضاً إلى حساسية المكان والزمن .

هناك قضية أخرى هي كيفيات الجمال أو الكيفيات الخاصة وهي أيضاً تخضع إلى النسبية ، الجمال وموضوع النظر إلى الجمال ، التفاعل مع الجمال هو الذي يمنحه هيئة ما أو كيفية ما .

وفي العودة إلى التعريف في أن الجمال هو تمازج وتماثل بين عدة وحدات يربطها رابط أساس نحاول أن نفهم موضوع الرابط ، ما هو الذي يربط بين هذه الأجزاء ، هذا الرابط يتغير بتغير الموضوع الجمالي وبتغير المادة الجمالية . ففي الفنون التشكيلية يكون الرابط عادة اللون أو الخط ، فعندما نشاهد لوحة تشكيلية نجد أن هذه اللوحة متكونة من عدة أجزاء تتصل باللون أو الخطوط . وفي النحت مثلاً الشكل وهندسته هي الرابط في الموضوع الجمالي ، في الموسيقى اللحن بمفرده المتنوعة والمتعددة هو الرابط ، في الباليه الحركة ، في المسرح أيضاً تكون الحركة هي الرابط فضلاً على الحوار ، إذن لا بد عند البحث في الموضوع الجمالي من إيجاد الرابط الذي يربط أجزاء العمل ، وهذا الرابط بتأثيراته وسبل اشتغاله في الموضوع الجمالي هو الذي يحقق لنا الصفتين آنفتي الذكر وهما التمازج والتمايز ثانياً . ففي اللوحة التشكيلية نجد أن الفنان يضع أجزاءها منفردة في إطار لا يمكننا من إدراك مقدار التمازج أو التمايز بين الوحدات الموجودة فيها ، وعند إضافة اللون نجد أن هناك تمازجاً وتمايزاً داخل اللوحة مما يؤدي إلى خلق موضوع جمالي جديد ، وكذلك اللحن في الموسيقى ، وفي هذا دلالة على أن الرابط هو الشيء الوحيد الذي يحقق التمازج والتمايز الذي يعمل على توليد الجمال والموضوع الجمالي .

الكثير من الفلاسفة الذين درسوا علم الجمال أو فلسفة الجمال يرجعون الجمال دائماً إلى منابع أساسية ، إذ يعتقدون أن ينبوع الفن الأساس هو الشعر ، كل فن إنما هو في جوهره كما يقول (هايدكر) ضرب من الشعر لأن الصفة الشعرية واحدة وهي من أهم الصفات الجمالية التي تبعث في الأشياء ، والدليل على صحة هذا الاستنتاج أن المنهجيات الحديثة بدأت تبحث عن صفات شعرية في كل نماذج الفن المعروفة ، وكأن الشعرية هي الجمال ، بحيث أننا نبحت عن شعرية المسرح وشعرية السرد وشعرية السينما ، وشعرية الموسيقى ، وكأن اقتناص اللحظة الشعرية في كل فن من الفنون هو الفيض على روح الجمال في العمل الفني .

الموضوع الجمالي أو الجمال حينما يتفاعل معه المنتج للجمال أو المتلقي للجمال فإن هذا يحقق ما نسميه التجربة الجمالية أي لحظة تفاعل المبدع (منتج الجمال) مع

موضوعه تمثل تجربة إبداع جمالية ولحظة تفاعل المتلقي مع الموضوع الجمالي تمثل تجربة تلقي جمالية ، وتجربة الإبداع الجمالية وتجربة التلقي الجمالية نجمها في مصطلح هو التجربة الجمالية . هذه التجربة الجمالية كما يؤكد معظم الفلاسفة المشتغلون في هذا الحقل لا يمكن أن تستعاد بمعنى أن الشاعر الذي يكتب قصيدة معينة أو الموسيقار الذي يضع لحناً معيناً أو الفنان الذي يرسم لوحة معينة ويمارس هذا النشاط الجمالي لمرة واحدة لا تتكرر . فمثلاً الشاعر بدر شاكر السياب كتب أنشودة المطر في لحظة جمالية معينة وفي ظروف جمالية معينة على النحو الذي يؤلف تجربة جمالية معينة لا يمكن أن تستعاد أي أنه لا يمكن أن يكتب أنشودة المطر مرة ثانية لأنه يستحيل إعادة اللحظة ويستحيل إعادة الظروف الجمالية ذاتها ، فالتجربة الجمالية ذات خصوصية استثنائية متفردة لا يمكن استعادتها .

فيما يتعلق بتلقي التجربة الجمالية ، يعتقد الفلاسفة الذين بحثوا في نظرية التلقي بأن الجمال يدرك أولاً ، ثم يعقل ، أي أنني عندما أتلقى موضوعاً جمالياً فإنني أشعر بالجمال وأدرك هذا الجمال بالحس أولاً ، فمثلاً عندما نمر من أمام منظر معين فإننا ندرك جماله بالحس أولاً ، وفي مرحلة ثانية نبدأ بالتعليل ، أي البحث عن العناصر التي دفعتنا إلى الاعتقاد بأن ما نراه هو جمال .

يحقق إدراك الجمال ما يسمى بالنشوة الروحية تجاه الجمال ، ففي لحظة معينة يشعر الإنسان بسعادة معينة تداهمه ، هذا الإحساس بالجمال وهذه النشوة الروحية التي يشعرها الإنسان تجاه الموضوع الجمالي تأتي عادة عبر مجموعة من السبل أو الطرق ، فالسبيل الأول هو القراءة ، كأن يقرأ متلق ما أو قارئ قصيدة أو رواية ، وهذا المقروء يبعث في داخله نشوة روحية على نحو تجعله يشعر بالجمال ، ثم في مرحلة ثانية يأتي إلى التحليل فيبحث في مستوياتها الدلالية الشكلية والمعنوية . السبيل الثاني هو الرؤية (مشاهدة موضوع جمالي) ، السبيل الآخر هو السماع ، فأنا أسمع شيئاً جمالياً أحس به أولاً ثم فيما بعد أحاول أن أحلله .

يفرق الجماليون أيضاً على هذا الأساس الذي تحدثنا عنه بين رؤية جمال الشيء وبين رؤية صفاته الجمالية ، ثمة فرق بين أن أرى جمال الشيء (جمال شجرة مثلاً) وبين أن أعدد الصفات الجمالية لهذه الشجرة .
ما الفرق في رأيكم ؟

الفرق هو العاطفة في المرحلة الأولى التي تحس ، أما في الثانية فالعقل هو الذي يعقل .
إن الجمال عصي على التعليل .. ثمة أشياء تبقى غامضة تؤثر في الآخر دون تعليل ، العقل لا يستطيع أن يحلل مظاهر الحس ، كلما كانت الأشياء التي تحس ولا تعلل زاد هذا من قيمة الجمال في الموضوع الجمالي .

هناك مصطلح آخر له دلالاته وأهميته في بحث موضوع الجمال هو موضوع الخبرة : ما علاقة الخبرة بالجمال ؟

الخبرة عامل أساسي وخطير في تحديد موقف الإنسان من الموضوع الجمالي ، لأنه على سبيل المثال موضوع جمالي معين يقترن لدى شخص بخبرة سيئة أو مؤذية فلم يتوافر

الجمال في هذا الموضوع عند هذا الإنسان مطلقاً ، يعني على سبيل المثال شخص أو طفل يذهب إلى حديقة (موضوع جمالي) للتنزه لأول مرة ويمر بتجربة قاسية تؤلف له خبرة سلبية (جريمة قتل مثلاً) سوف لن يرى في هذا الجمال جمالاً على الإطلاق ، بينما طفل آخر في وقت آخر ويشاهد منظراً مفرحاً ستؤكد له هذه الخبرة موضوعاً جمالياً في هذا الموضوع .

إذن في معاينتنا للموضوع الجمالي علينا أن لا ننسى معيار الخبرة وأثرها في تحديد قيمة الموضوع الجمالي بالنسبة إلى المتلقي .

سبق وأن ربطنا واعتبرنا الجمال منتج فني ، الفن هو الذي ينتج الجمال ، وبإزاء هذه القضية لا بد لنا أن نعرف بأن الجمال يتمثل أولاً بوصفه فكرة في ذهن الفنان ، لكن المشكلة هي في الكيفية أو القدرة التي يستطيع فيها الفنان أن يترجم أو يحول هذه الفكرة إلى جمال ، ومن هنا ينشأ التمايز بين شئيين ، بين فنان وآخر ، وبين منتج جمالي ومنتج جمالي آخر . كيف يستطيع الفنان أن يترجم هذه الفكرة الجمالية ؟
قدرة الفنان على الترجمة تتمثل في :

الأسلوب أولاً : فبوساطة الأسلوب يستطيع الفنان ترجمة الفكرة الجمالية إلى عمل إبداعي . ثانياً القدرة على نقل كامل الإحساس إلى الموضوع أو ما يمكن أن يصطلح عليه القدرة على البعث . القدرة الجمالية أو القدرة على بعث الإحساس بالجمال داخل الموضوع . النقص الجمالي الذي تعاني منه الموضوعات الجمالية قد لا يعود إلى نقص الخبرة بل يعود إلى أن قوة الفنان في الترجمة ليست كافية بالقدر الذي ينقل كامل الإحساس في هذا الموضوع إلى الموضوع الجمالي .

وصفنا الجمال بالقوة والذكاء والوفرة نعني بها ظهورها أولاً في الفكرة وقدرة الفنان على ترجمتها ونقلها ثانياً بصورة عامة . وعبر التعبير عن الأفكار والمفاهيم الخاصة تتحدد ماهية الجمال وحدود الجمال تكون في حدود فهمنا وإدراكنا للموضوع الجمالي والتجربة الجمالية .